

الموروثات المشرقية في العصر الأندلسي

بقلم: إلياس تيرس سادابا^(١)

ترجمة: د. عدنان محمد آل طعمة^(٢)

إذا أردنا دراسة انتقال الثقافة من المشرق العربي إلى الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) فسيجد الباحث للوهلة الأولى أنه بحاجة ماسة لمعرفة ظاهرة كيفية تدفق منابعها وماهيتها، وكيف كانت مساراتها حتى استطاعت تلك الثقافة أن تصل إلى الأندلس.

ومن أجل ذلك يجب علينا أن ننعم النظر كثيراً حول شخصية كل واحد من أولئك العلماء والمفكرين والرحالة الذين أسهموا بمجهود كبير عبر الزمن خدماً لهذا العمل العلمي. وفي جانب آخر سيكون من المناسب اتباع طرق مختلفة وفقاً للفرع العلمي الذي تبحث فيه للوصول إلى معرفة الأفكار والمؤلفين والأعمال المشرقية الأكثر تأثيراً على الفكر الأندلسي، ولأجل الوصول إلى هذه الأهداف التي تمس البيئة الشعرية سيكون من الضروري حينئذٍ مراجعة المعلومات التي تخص عملية النقل بشكل دقيق، ولكن من الواجب أيضاً ونحن نمضي في البحث علينا أن نبرز التأثيرات الفكرية التي استعارها الأندلسيون وظهرت في الأشكال العروضية العربية التي انتقلت إلى الأندلس. والبحث في هذا الموضوع يمكن أن يصل بنا عبر هذا المسار لكي نستخلص الأداء الصوتي الخاص في الشعر الأندلسي!

ولو أن العمل يصعب تحقيقه ويتطلب أولاً مسح الطريق بأبحاث علمية سابقة، للدراسات تكون أكثر شمولية وتفصيلاً؛ ولكن بمراجعة أولية - حتى ولو كانت سطحية - للشعر الذي نريد أن ندرسه لن يكون صعباً العثور على مثل هذه التأثيرات المشرقية غير المحدودة والتمازجة في القصائد الإسبانية؛ لقد منحتنا هذه التأثيرات ظواهر خاصة أثناء مراحل الانتقال الثقافي إلى الأندلس.

في المرحلة الأولى: إلى جانب تبني طرق الأشكال التعبيرية فإنهم استقطبوا من الشعر المشرقي جميع ما يحتويه من أفكار وموضوعات.

(١) مستعرب إسباني وأستاذ للأدب الأندلسي في جامعة مدريد المركزية سابقاً.

(٢) باحث عراقي يقيم في دمشق.

الإشارة إلى الصحراء؛ والمواقع الجغرافية في الجزيرة العربية والشام، أو في العراق، تبرز صفات وميزات خاصة للبدو القدماء، تصوّر جمال المرأة وتمنح الشاعر مشاهد خيالية عن كلّ جزء من أجزاء جسمها.

الأحوال، والظروف والشخصيات تتزامن وتدور حول العشق والعشاق بالإضافة إلى ذلك فإن آلاف المواضع، والأفكار المطروقة نجدها تتكرّر في الشعر الأندلسي حتى الأيام الأخيرة من تاريخ الأندلس.

فرز الموضوعات المطروقة هذه بقدر ما سنقرأه من قصائد أندلسية ليس شيئاً صعباً، لأنّ كلّ ذلك معروف جداً لتكراره، لكن يجب أن نمضي إلى الأمام أكثر، وبالتالي يلزم علينا اكتشاف موروّثات أخرى تقع خارج الموضوعات المشار إليها؛ وعلى العكس من هذا، فإنها تتكون من مشاهد رقيقة، وأفكار لطيفة ومختارة، وهي محاكاة أعاد صياغتها شعراء أندلسيون، وردت -من قبل- في أعمال مشرقية كبيرة.

سيكون هذا العمل بحثاً لا قيمة له وليس شعرياً إذا ما أردنا التأكد من معرفة ما يوجد من أصالة في الثقافة أو في الحضارة؛ لكن من الضروري دائماً تحقيق ذلك.

لنعرض في الفقرات الموجزة التالية -لمختارات عدة- خصائص الأفكار أو المشاهد المألوفة جداً عند أدباء تلك الحقبة. يجب أن أنبه إلى أنّ المؤلفين والكتاب -في مواضع مختلفة لمختارات خاصة أو مختارات مشروحة- يستقدمون لنا الدعم في معرفة إقامة علاقة أو صلة بين هذا الشاعر أو ذاك من أصحاب هذه المختارات^(٣).

من بين هذه المختارات الشعرية المعروفة جداً مقطوعة صغيرة لسعيد بن جودي وقد خصصها لغانية اسمها جيجان أحبّها ولم يرها ألبتة بل سمعها تغني فقال^(٤):

سمعي أبى أن يكون الروح في بدني فاعتاض قلبي منه لوعة الحزن
أعطيت جيجان روحى عن تذكرها هذا ولم أرها يوماً ولم ترنى
كأننى واسمها والدّمع منسكب من مقلتي راهب صلى إلى وثن^(٥)

(٣) الكاتب -هنا- يعني أنّ الكتاب أصحاب المجموعات الشعرية كالذخيرة -لابن بسم الشنتمري- مثلاً حينما يتناول شاعراً ما، ويأتي ببعض قصيده، يذكر أبياتاً أخرى لشاعر مشرقى يقول وقد أخذها عنه، أو إنّ هذا المعنى أخذ بعضه الشاعر الأندلسي من البيت الغلاني؛ أي بتعبير أنق فإنّ أصحاب المختارات الشعرية يساعدونا لمعرفة وجه الشبه بين هذه المضامين الشعرية الأندلسية والمشرقية.

(٤) الحلة انسرياء ١٥٧/١-١٥٨، وقد ترجم دوزي الأبيات في كتابه أبحاث-ص ٨٦، كما وردت في كتابه - تاريخ إسبانيا الإسلامية- بالفرنسية- طبعة ليفي بروفسمال ٣٦/٢، وقد ترجمها إلى الإنكليزية نيكل في كتابه -الشعر الأندلسي ص ٣٠.

(٥) أورد ابن حيان قبل البيت الأخير:

استوصى خيراً بروح زال عن بدني

فقل لجيجان يا سؤلى ويا أملى

عبث الزمانُ بجسمها فتناثرت
عن عينها في ثوبٍ نورٍ سابغٍ (١٠)

هذه الفكرة حول بريق وشعاع الخمرة وفيها يبدو الكأس فارغاً نجدها مكررة عند شعراء المشرق، يقول البحرني:

من قهوة تنسى الهموم وتبعث الـ
شوق الذي قد ضلَّ في الأحشاء
يُخفى الرّجاجة لونها فكانها
في الكفّ قائمة بغير إزاء

كذلك قول الناجم:
وقهوة كشعاع الشمس صافية
مثل السّراب ترى من رقّة شجّة
إذا تعاطيتها لم تدر من فرح
راحا بلا قدح أغطيت أم قدحاً؟

وتنسب إلى المنصور بن أبي عامر نفسه قصيدة في الفخر تلك التي يقول فيها:
رميّت بنفسى حول كلّ عزيمة
وخاطرت والحرّ الكريم مخاطير
وما صاحبي إلا جنان مشنّع
وأسمر خطي، وأبيض باتز (١١)

وبسرعة يقفز إلى الذهن أنّ المؤلف يورد هنا في البيت الحادي عشر في لامية العرب للشنفرى (١٢):
ثلاثة أصحاب فؤاد مشنّع
وأبيض إصليت وصفراء عيطل

كان المنصور في أحد الأيام موجوداً في أرميلات - Armillat - مع شاعر بلاطه عبد الملك بن نفيل، كتب له قصيدة يصف الربيع كما في الأبيات اللاحقة:

بكت السّماء على الثرى فتبسّمت
منها ثغور عن عفائل جوهر
أهدى الربيع إليه سكب سمانه
فكسا الثرى من كلّ لون أزهر
ضحكت متون الأرض عند بكائه
عن أبيض يقق يروق وأصفر (١٣)

هذا الحظور الربيعي مع غيوبه وهو عبارة عن بكاء السّماء وخصوبة الأرض التي تتبسم

(١٠) تقدم البيت الثالث على البيت الثاني عند الكاتب في ترجمتها الإسبانية: ورأيت أن أعيدها إلى الأصل كما وردت في الحلة السيرة - لابن الأبار ٢٦٣/١. ودوزي - Notices - أبحاث ص ١٤١، ابن عذاري - البيان المغرب ٣٧٢/١ - وترجمة فائق ٤٢٣/١ - ابن خاقان، مطمح ص ٥.

(١١) ابن الأبار: الحلة السيرة ٢٧٤/١، دوزي - أبحاث ١٢٥، المقرئ - نفح الطيب ٢٦٠/١، Analect، البيان المغرب ٢٩٣/١.

(١٢) اللامية ص ١٥، ط/ عبد الحليم حقي - مشنّع: شجاع؛ الأبيض: السيف، عيطل: طويل العنق، إصليت: صقيل: بمعنى استلّ من غمد، والصفراء: القوس.

(١٣) التبديع في وصف الربيع، ص ١٣.

مروان بن أبي الجنوب^(١٨). لننظر مشهداً من أبيات للشاعر الأخير يشكل جزءاً من قصيدة في مدح الخليفة المعتصم العباسي صاحب بغداد:

لا تشبغ الطير إلا في وقائعِهِ
فأينما سارَ سارت خلفهُ زُمرا
عوارفاً أنه في كلِّ معتركِهِ
لا يُغمِدُ السيفَ حتّى يُكثِرَ الجُزرا

وابن سارة الشنتريني، شاعرٌ معروفٌ أيضاً، نحتفظ له بمجموعة أبياتٍ يصف فيها أشجار فواكه مختلفة، لننظر هنا واصفاً أشجار النارج:

أرى شجرَ النارج أبدى لنا جنىً
كراثٍ عقيقٍ في غصون زبرجدٍ
نقبَلها طورا، وطورا نشمها
كقطر دموع ضرجتها اللواعجُ
بكفٍ نسيم الرّوع منها صوالجُ
فهنَّ خدودٌ بيننا ونوافجُ (١٩)

وهي تشبه أبياتاً أخرى لابن المعتز^(٢٠):

وكانما النارج في أغصانهِ
كرة رماها الصّولجانُ إلى الهوا
من خالص الذهب الذي لم يخلطِ
فتعلقت في جوفٍ لم تسقطِ

ولننظر إلى هذه الأبيات الأخرى؛ ولنفس الشاعر حول الباذنجان^(٢١):

ومستحسن عند الطعام مخرج
أطافت به أقماعه فكانه
غذاءه نمير الماء في كلِّ بستان
قلوبٌ نعاج في مخالب عقبان

وابن سعيد الذي احتفظ لنا بهذه المقطوعات ذكر لنا أنّ هذه الأبيات كان مخترعها ابن المعتز. ولم أستطع أن أجد بين شعر هذا الأخير شعراً استعار منه الشاعر الشنتريني، لكنّ النواجي في كتاب حلبة الكميت أورد الأبيات التالية ولم يذكر اسم قائلها، لكن بدون شك هي تلك الخاطرة والفكرة السابقة التي أوردها ابن سعيد:

وأبدع بستان أنيق رأيته
قلوب ظيباء أفردت عن جسومها
على طبق يحكي لمقلة رامق
على كلِّ قلبٍ منهم كفّ باشق (٢٢)



(١٨) أحد الشعراء الذين عاشوا في كنف المتوكل، وكان حفيداً لمروان بن أبي حفصة ينهج منهجه، ويخطو خطاه في شتم آل علي بن أبي طالب (معجم الشعراء ٣٩٩).

(١٩) الرايات - لابن سعيد - ص ٣٥ - رقم ٧٤.

(٢٠) حلبة الكميت - ٢٦٥.

(٢١) رايات المبرزين - ص ٢٣٦ - رقم ٧٥.

(٢٢) النواجي - حلبة الكميت ٢٦٨-٢٦٩، وقد وردت الأبيات منسوبة لابن المعتز، في مطالع البدور - للغزولي، ٣١/٢؛ كذلك نهاية الأرب ٤٥/١١، وهو المجلد نفسه الذي استخدمه الكاتب في الصفحة السابقة!! - (الترجم)